

البارزة في النقد والحرب والفكاهة، ويبحث عن خصائصه في التورية والجناس والزجل والتشطير، ويدرس جوانب هامة في حيوته أعلامه البارزين



## عصر سلاطين المماليك المجلدان : الثالث والرابع

تأليف الأستاذ محمود رزق سليم  
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية  
للأستاذ محمد رجب البيومي

يمتد صدق وأستاذي الجليل محمود رزق سليم أن العصر المملوكي لم يأخذ حظه من البحث العلمي الدقيق، فهو حافل بالمؤلفات العلمية في شتى المواضيع لثقافية، ذاخر بأعلام اللغة والفقه والأدب والتاريخ الذين حفظوا التراث الإسلامي بعد سقوط بغداد في يد التتار، ملياً بالأحداث السياسية والتاريخية التي كتبت مستقبل مصر والإسلام، وحولت اتجاه الشرق العربي إلى تأمين يعصم من الكوارث والخطوب، ومع ما لهذا العصر من الأهمية الخطيرة فأكثر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين يقابلونه بوجه عابس، ويواجهونه بنقد حاد

وقد كرس الأستاذ المؤلف جهوده الحافلة للدفاع عن هذا العصر وتسجيل مفاخره العلمية والسياسية، وتمتد ما أنتج للأدب والعلم من ثروات غالية يعثر بها ترائنا النفيس، ولم يقصر المؤلف جهوده في هذه الناحية على ميدان واحد، بل تشعبت به الميادين، وانفسحت أمامه الطرق، ووجد لديه من الموهبة والكفاءة والثابرة ما حفزه إلى ارتياد الطرق المتشعبة، والصيد في الميادين المختلفة، مها أزهقه السير والتجوال، وأضناه التجمع والثوب

فهو في كلية اللغة العربية بوجه تلاميذه إلى كنوز هذا العصر، ويعرض أمامهم أساطينه وأعلامه محملاً ناقداً، ومؤرخاً مستوعباً، ويفسح مجال المقارنة بينه وبين العصر العباسي والأندلسي دون أن يتمصب لناحية أو يتشيع إلى فريق وهو في مجلة الرسالة القراء يطالع قراءها الأفاضل بطرائف منتخبة عن العصر المملوكي، فيجلا صفحات رائحة عن سماه

وهو في جامعة قزاق يقدم رسالة علمية عن النثر الفنى في العصر المملوكي، فتجنر عناصره ومقوماته، ويزن آثاره بميزان النقد الحديث، ويمتد صلة واضحة بين الطريف والتلديد

وهو في ميدان القصص، يخط عدة أقاصيص تاريخية يشترع أبطالها وحوادثها من هذا العصر الملى، ويسوتها للقراء في أسلوب طلي، وحوار جميل، وقد وقف على بعضها - قراء الرسالة، فطالعوا ما كتبه الأستاذ عن قانصوه النورى السلطان الشهيد ثم هو أخيراً في ميدان التأليف العلمي يكتب ثمانية مجلدات ضخمة تكون موسوعة شاملة لأهم ما حفظه التاريخ عن هذا لعصر العجيب، وإذا كان المؤلف قد رجع في مصادره إلى مئات المخطوطات العتيقة، يكشف عنها في خزائنها الكنونة، وينبش في أصابرها البالية باحثاً متقبلاً، ليؤيد رأيه بالدليل اللغوس والحجة المعترف بها، حتى سود آلاف الصفحات، وأرهق جسمه وعقله وعينه ... أقول إذا كان المؤلف قد فعل ذلك فإنه جدير بالإعجاب والتقدير، ولن يقدر مجهوده حق قدره غير من كتب به أن يقوم بدوره الشاق في الرصد والتسجيل

ويذكر قراء الرسالة أنى كتبت بالعدد « ٧٨٨ » كلمة عن المجلدين الأول والثاني من هذه الموسوعة الضخمة، وهأنذا أكتب كلمتي الثانية عن المجلدين الثالث والرابع بمناسبة ظهورها الآن، فقد آرت أن أتابع هذه الحلقة المباركة، لأعلم ما لم أكن أعلمه عن عصر العريزة، وتاريخها النفيس، ولئن أخلص للقراء مواضع الكتاب ومحتوياته في هذا العرض السريع، فذلك متيسر من يمر بالفهرس مروراً خاطفاً، ولكنى أجه إلى نقطة هامة، سبق أن أشرت إليها في مقال السالف، وبقتت تتطلب المزيد من الإيضاح والتعليق

لقد عزم المؤلف أن يجعل من المجلدات الثمانية موسوعة حافلة بأهين والجميل من أبناء العصر المملوكي، فسود مئات الصفحات في تسجيل حوادث وأنباء لا يحتاج إليها القارى في شئ فهو يكتب قوائم حافلة بأخبار الفيضان وأرقام الصعود والمهبوط

من صفحات الكتاب ، وهي في الحق ضئيلة بالنسبة إلى كثرة عددهم ، وواسع فضلهم ، ونظرة يسيرة إلى كتب أعلام هذا العصر وطبقاتهم تدل على صواب ما نقول ، وقد بدت فيها عناية مؤلفيها بأبناء عصرهم وأبائهم ، وفي الحق أننا وجدنا فيها خضبا واسما بيميد القور ، فلم يكن لنا حياله إلا حسن الالتقاط والنظم ، على أنها مرحلة في هذا الكتاب لا يد من اجتيازها ، ولا سيما أن المؤلفات التي أشرنا إليها جمت فأوتت ، ونوهت بالشاهير وغير المشاهير »

فالأستاذ محمود رزق يقتدى بكتاب العصر المملوكي في حشد التراجم من كل صوب ، وقد نسي أنه يكتب مجلداته في القرن الرابع عشر ، لا في المائة الثامنة ، أو القرن التاسع ، ونكل عصر خصائصه في التأليف وأبجائه في البحث ، فقد كان السخاوي وابن إلياس والقريري يؤمرون الجهات المختلفة ، ليسجلوا تراجم من يقابلونهم أو يسمعون عنهم من علماء المساجد ، وأساتذة المدارس ، ومشايخ الروايا ، وقضاة المحاكم ، ثم يسودون صحائفهم بالمدينة بما يجمع الطيب والخبيث ، والصالح والظالم ، والسمين والنث ، والثاقف والجليل ، وقد عني الزمن على هذه الطريقة البالية ، وأصبحنا نختار ما نكتب عن دقة وتمحيص ، فإذا أراد مؤرخ معاصر أن يسجل هذه الحركة العلمية في وقتنا هذا ، فليس عليه أن يتبع التراجم في شتى المظان ثم يرصدها لتقارنه في إيجاز واقتضاب ، ولكن عليه أن يدرسها في مطالته الخاصة ، ثم يأخذ منها ظواهر معينة وأدلة ثابتة يقيم عليها بحته التاريخي الكلي ، ويجعل منها أسسا متينة لأرائه وقضاياه ، وما ينتهي إليه من نتائج وأحكام

وهل يستسيغ الأستاذ الفاضل -- إذا أراد أن يكتب عن عصرنا الحديث مثلا -- أن يترجم لجميع من يقع على مؤلفاتهم من أساتذة الكليات ومدري الماهد والمدارس ، مع أنهم جميعا يتسمون بالعلم والفضل والإنتاج ، أو أنه يختص أول الأثر البارز في توجيه الحركة العلمية والأدبية بالتقد والتمحيص ؟ أ كبر الظن أنه يتجه الوجهة الثانية دون نزاع ، ولا يقبل أن يقلد السخاوي والقريري والسبكي وابن حجر فيما صنعوه منذ عدة قرون !! ولعل اهتمامه الكبير بأن يجعل كتابه موسوعة حافلة ذات كتب

ويتحدث عن زار مصر من الأضياف وسرد فهارس متتالية للكتب المختلفة في الفقه والتفسير واللغة والتاريخ والأدب والنطق مما أخرجه علماء العصر المملوكي في ميدان التأليف ، ولم يسمع بأكثره لتلاشيه في رحاب السنين ، كما يتبع كل خليفة أو مملوك أو وزير أو عالم أو قاض ورد ذكره في الموسوعات الحافلة كالضوء اللامع أو النجوم الزاهرة أو حسن المحاضرة أو السلوك أو الشذرات أو التذكرة أو بدائع الزهور أو الدرر الكامنة فيخصه بترجمة موجزة مما كان سيبا في إرهاب الأستاذ بلا مبرر ، وقد خالفت المؤلف في هذا الرشد المجيب فقلت في مقال السالف بجلة الرسالة - العدد ٧٨٨ ما نصه :

« على أن أخلف الأستاذ في ناحية هامة تشيع في مؤلفه ، فقد حرص كل الحرص ، على أن يترجم لكل من ولي السلطنة أو ناب عنها ، وكذلك من تحدث عنهم فيما بعد من القضاة والخلفاء ، وفي هؤلاء جميعا من لا يستحق أن يكتب عنه سطر واحد ، حيث كان فردا عاديا لم يخلف أتراها ما أو تحدث في عهده من المفاجآت ما يدعو إلى الحديث عن زمن ولادته أو مدة حياته أو آونة وفاته ، وإنما ولي وعزل ، وكأنه لم يولد ، فكيف تتب أنفسنا في تراجم أسنام آدمية ، قذف بها الزمن في قرار سحيق » أقول ، لقد سبق أن قلت ذلك على صفحات الرسالة ، واعتقدت أن المؤلف الفاضل قد اقتنع برأي المتواضع ، ولكن ظهور المجلدين الثالث والرابع ، قد أثبت تقيض ذلك ، حيث حشد الأستاذ فيها تراجم عديدة لشكرات مهملة تهب عنها المؤلف في شتى الموسوعات ! وحسبك أن المجلد الرابع قد ضاع ٩٠٪ منه ، في هذه التراجم العجيبة ، حيث شغلت ( ٢٤٧ ) صفحة طويلة مزودة بالمراجع والأسانيد ، وبلغ عدد من ترجم لهم نحو الخمسة والخمسين من العلماء ، وكان الأجدر أن يقصر الأستاذ تراجمه على النابيين الأفاضل من بين هؤلاء ، ولم لا يتجاوزون المائة على أكثر تقدير !

ولعل المؤلف قد شعر أنه بدل مجهودا كبيرا دون حاجة ملحقة إليه فعمد إلى تبرير صنيعه ، وقال في مقدمة المجلد الرابع - وكأنه يريد على -

« وتستغرق التراجم الموجزة لمشاهير العصر جزءا غير قليل

وقد لاحظت أن الأستاذ قد كتب تراجم موجزة لبعض العلماء ثم أعادها بإسهاب مطيل ، وهذا لا يكون إطلاقاً في كتاب يحمل اسماً واحداً ، وكان الأجدر أن يترك المؤلف تراجم الموجزة ويحيل القارئ إلى ما كتبه أو سيكتبه من التراجم الطبية ذات العرض الشامل الفسيح ، وهناك أمر ثان يتعلق بهذه التراجم الطويلة ، فقد لاحظنا أن المؤلف قد اختار من الفقهاء عدداً كبيراً كالنورى والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وذكريا الأنصارى، ومع هذه الحظوة البانئة بالفقهاء فقد أغفل النحاة واللغويين فلم يكتب ترجمة مسهبة لرجل كبن منظور أو ابن هشام أو ابن مالك ، وكان الأولى في التراجم التفصيلية أن توزع وفق العلوم المختلفة ، فلا يطغى الفقهاء والمؤرخون على اللغويين والنحاة مثلاً ، فيكون في هذا التنوع تاريخ ضمني لجانب مختلف من العلوم ، ولعل الأستاذ قد حاول ذلك ، فتزاحمت لديه الشخصيات ، وتقاتلت أمامه الأسماء ، وصدق عليه قول القائل

تكاثرت الظباء على خراش فنادى خراش ما يصيد  
محمد رجب البيروني

وأجزاء ، قد دفعه إلى هذا الرصد والاستقراء ، وهو بعد يعلم مناهج البحث التاريخي وما طرأ عليه في العصر الحديث من صوابط وقبود ، ولن يحتاج إلى من ينهه إلى ذلك ، وفي الأبواب العامة التي يفتح بها المواضيع الرئيسية لكتابه ، ما يدل على إحاطته الشاملة بالتيار الفكرى الحديث ...

وقد خص أستاذنا الفاضل طائفة من أعلام الفقهاء بتراجم تحليلية مسهبة تحمل مكاناً فسيحاً من المجلد الثالث ، وقد صاغها في نسق علمي دقيق ، فهو يذكر المعالم البارزة في حياة من يترجم له ، ويمرر شيوخه وتلاميذه وآراءه الفكرية والمذهبية ، ثم يبنى بتحليل مؤلفاته ، وعرضها عرضاً يكشف عن ذخايرها الدفينة ، ومكانتها المسترة ، وبذلك استطاع أن يحلل طائفة من الكتب العلمية التي نعتبر بحق مصادر مستوفاة في الفقه والأدب والتاريخ ، ولم يكتب بذلك بل أفسح المجال في المجلد الرابع لعرض مؤلفات أخرى لا تنقص عن سابقها في شئ كوفيات الأعيان ، ومجائب القدور ، وانشور اللامع ، وبندائع الزهور ، وكانت هذه الموسوعات العلمية في حاجة ماسة إلى من يتحدث عنها بإسهاب فيبين ما اشتملت عليه من معارف جزيلة النفع ، ويكشف عما اهتز في غصونها من عمار يانعة ، وغرد على أفنانها من طيور صادحة ، ولعل المؤلف بذلك يلفت الأذهان إلى ضرورة الاعتناء بإحياء هذه الكتب ، وإخراجها للناس من جديد في نسق علمي يعتمد على المراجعة والتحقيق

ومع أن الكاتب الجليل قد تقدم ببعض هذه المؤلفات نقداً علمياً سليماً ونبه إلى ما تجمه من محاسن ونقائص ، إلا أننا نلاحظ أنه يفضى العين عن بعض المآخذ الهامة ، بل ربما تلس لها من التصويب ما يتعذر التسليم به ، وقد دفعه إلى ذلك هيأه بالعصر الماركسي ، وموقفه منه موقف المدافع الدائد ، وهو يصرح في مقدمة المجلد الثالث بأن النقد ليس غرضاً أصيلاً في تحليله وعرضه ، وإنما يرسم صورة هادئة خالية من صخب النقد والحد ما ، كما يقول إنه يأمل أن يجد للنقد الصريح مجالاً غير هذا المجال ، وأنا لا أوافق على هذا المسلك ، فالفكرة العلمية لا تكون كاملة مستوفاة إلا إذا أخذت دورها الكامل في التمهين الشامل ، والنقد الدقيق

## نايخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات



يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع على رات في ٢٥٥ صفحة  
وتجه أربون ارشاً مع أجره البريد